نحو الكمال (١)

يكثر الناس في حديثهم هذه الايام من الطعن في المدنية الحاضرة والتنديد بها. فتسمع احدهم يقول مدنيتنا الحاضرة مدنية ساقطة تُسلط القوي على الضعيف. تُقسي قلوب الحكام على رعاياهم. تجعل الغني يظلم الفقير. تستدعي استخدام الصغار في المعامل. تحمل للشعوب احتكار صناعة العامل. تسوغ للمحتكرين دفع اجور بخسة لعالم. مدنية تهيج العمال على ارباب المال والامة على الحكومة. تؤيد المبدأ « الحق للقوة ». تسلب النساء حقوقهن الطبيعية تعزز الطمع وحب المال في قلوب الحكام فلا يجرون عدلاً في الارض. الكذب رائج فيها والغش والخداع والنفاق وحب الذات. التعصب الديني أعمى قلوب ابنائها عن الحق ولا يزال يفرق بين القلوب ويذكي فيها نيران البغض والمكر والحسد. والكلمة هي منبع الفساد والخلاعة والرذيلة. فما لك ولهذه المدنية. بالله عليك لا تحدثني عنها ولا تذكر لي اسمها. وكثيرون يتمنون مع هكذا ان يصلم ارضنا مذنّب يدمّرها هي ومدنيتها

نذم مدنيتنا الحاضرة لاننا نقابلها مع المدنية التي تتصوّرها تصوراً ولا وجود لها الآن. غير اننا اذا قابلناها مع المدنية الغابرة وجدنا البون بينهما شاسعاً فان حياة الاقدمين كانت كلها بؤساً وكانوا يقضون العمر في مناهضة الوحوش المفترسة ومحاربة بعضهم بعضاً ويحسبون ان للعالم الهة ظالمة لا تسر الاّ باذية الانسان ناهيك عن انهم كانوا معرضين للمرض والجوع والخوف والالم. فاذا اعتبرنا ذلك كلهُ قلنا « هنيئاً لنا ولمدنيتنا »

شعر الاقدمون بما هم فيهِ من البؤس فكرهوا الحياة. ظنوا ان لا كمال الاّ بعد الموت. ظنوا الانسان لا يقدر ان يتسلط على الطبيعة ويستعمل قواها سعياً وصل اليهِ من التمدن والرقي. فحسبوا البؤس من لوازم الطبيعة والسعادة من خوارقها. ولذلك كانوا يعللون انفسهم بالحياة الثانية بعد الموت اذا رضيت عنهم الالهة. وهي لا ترضى عن البشر في زعمهم ما لم يذوقوا انواع العذاب فكانوا يقتنعون بالتعب والنصب ثم يموتون لكي يستريحوا بعد الموت حيث لا شقاء ولا بؤس لا مصائب ولا احزان بل سرور دائم وسعادة ابدية. وما من امة الاّ في ديانتها موطن للسعادة في الحياة الاخرى محل لا يدخلهُ سوى الابرار الذين احتملوا الآلام بالصبر الجميل. وهذا دليل على يأس الاقدمين وقنوطهم من الحياة الدنيا

(١) من خطبة تليت في الامتحان السنوي للجمعة العلمية السريانية بالمدرسة الكلية في بيروت في ٤ يوليو الجاري

ولا عجب في ذلك فقد جهل معرفة القوى الطبيعية فبقيت تسيطر عليهم وتذيقهم نتيجة جهلهم من العذاب اشكالاً

اما نحن وان كان بعضنا لا يزال يشاركهم في كثير من آرائهم واعتقاداتهم · فقد اصبحنا ننظر الى الحياة من وجهة ثانية · فهم حسبوا الكمال مستحيلاً على الارض ونحن نحسب انه على طريق الكمال وان لا بد من الوصول اليهِ اخيراً · هم عدوا التنافر بين مصلحة الانسان ومحيطهِ من نواميس الطبيعة التي لا يطرأ عليها تغيير · ونحن لا نعد هذا التنافر الا عرضياً لا بد من زوالهِ في المستقبل · هم توقعوا الحياة السعيدة بعد الموت · اما نحن فنسعى لجعل حياتنا سعيدة على هذه الارض قبل الموت · هم حسبوا الشر من طبيعة الانسان ونحن نعدهُ نتيجة عدم التآلف بين الانسان ومحيطهِ ومتى حصل هذا التآلف لا نعود نتوقع بالشر · حياتهم كانت على رجاء وحياتنا على يقين · فكثير من احلام فلاسفتهم ونبوات انبيائهم عن الحياة الثانية قد تحقق في جيلنا هذا والباقي سيتحقق في الاجيال الآتية · ألم يتنبأ افلاطون يوماً بمتغني فيهِ الانسان عن الاشتغال بيدويا بحجر من الآلات · الم يتنبأ ايضاً حكومة دمقراطية تجري العدل بين رعاياها وتنظر الى كل فرد من افرادها وتساعدهُ ليعيش عيشةً راضية · الا تعد الاديان بسماء يعيش فيها الابرار في نعيم مقيم · او لا ترى الآن جماعات من البشر تنطبق حياتهم على هذا الوصف · نعم ان تفاحة واحدة ناضجة تدل على ان تفاح الشجرة كلهُ سينضج · كذلك انسان واحد من الذين يتمتعون بالحياة الطيبة دليل على ما سيؤول اليهِ حال الانسان · فاني ارى ان لا بد من حالة كمالية يصل اليها المجتمع في منتهى السعادة والسلام وتمة اقوال الرسل والانبياء الكرام

ولكن ما هي الشروط للوصول الى ذلك · لا بد لادراك هذه الغاية من اقامة التآلف بين الانسان ومحيطهِ · فعلى الانسان اذاً ان يعرف اسرار الطبيعة ويفهمها ثم يجري بموجبها فتطيعهُ وتخضع لارادتهِ · ومقدار هذا التآلف هو مقياس التمدن في كل مكان وزمان · فهذه الابنية الفاخرة والادوات الجميلة والآلات العجيبة والسفن العظيمة لا تدل على التمدن الا لانها تدل على ذلك التآلف · فهو سنة الله في جميع اجزاء خليقتهِ

وفي سبيل هذا التوفيق عقبات هي ثلاثة اعتقادات رسخت في عقول العامة

الاول الاعتقاد العام بصحة القديم لكونهِ قديماً وفساد الجديد لكونهِ جديداً

من اصعب الامور على الناس ان يبدلوا اعتقاداتهم القديمة وان يروا فساد الفاسد منها · ترى البشر كلهم يسيرون في الطرق التي سار فيها اسلافهم ويكرهون السير في طريق جديدة

بل لا يهم التفتيش عن طريق جديدة افضل من القديمة وربما حسبوا ذلك كفراً يغضب الالهة ويجر المصائب . وهذا الاعتقاد هو اعظم عقبة يصادفها المصلح . فالم نتركه لا نستطيع ادراك غاية الوجود

الثاني الاعتقاد بان الطبقة المنحطة مستحقة الانحطاط

يرى البعض ان مبدأ تنازع البقاء وبقاء الاصلح يجري في الانسان كما في الحيوان فالطبقة المنحطة هي الجزء الفاسد من البشر وعلينا ان لا نساعدها بل ان نقضي على قدر الامكان

هذا هو اعتقاد الكثيرين ان لم اقل الاكثر . فانا ننظر الى النقص في القليل من اهل هذه الطبقة وتتعامى عن الالوف الذين لا نقص فيهم غير انهم خلقوا في محيط كثرت صعوباته فتغلبت عليهم . ولذلك تراك تنظر الى الضعيف فيا وتحتقره ولا تمد اليه يد المساعدة . ولكن في كل فرد قوة كامنة يجب على الهيئة البشرية ان تساعده ليبرزها

الثالث الاعتقاد العام بان الطبقة المنحطة سعيدة بانحطاطها

نعتقد ان ابناء الفقر سعداء مع كونهم يسكنون المنازل القذرة ويلبسون الثياب المرقعة ويأكلون الاطعمة السخيفة ويعملون الاعمال الشاقة

تقول « تعودوا ذلك فلا يشعرون ببؤسهم » ان العادة تخفف كثيراً من الآلام والارزاء الا انها لا تجلب السعادة . فالسعادة ليست عدم البؤس بل هي شعور خاص ناتج عن حسن الحال يشعر به السعيد ولا يشعر البائس الا بفقدانه

ألا ترون ايها السادة كيف ان ابناء الفقر يقضون كل ساعة في خطر الجوع والفاقة ولا راحة لهم بل دأبهم العمل لتحصيل الطعام والباس الضروريين . فمن اين لهم السعادة ؟

نقول ايضاً ان من ارتضى بمعيشته فهو السعيد . وكيف يرتضي هؤلاء بمعيشتهم وهم يقابلون حالهم بحال حيوانيم الاغنياء . وكيف يكونون سعداء وهم ينظرون باعينهم ويسمعون بآذانهم ويشعرون بانفسهم الفرق بين حالهم وحال اهل اليسار

وهذا الاعتقاد ينفي الامة عن واجباتها الاجتماعية ويجعل الحكام يتغاضون عن سن الشرائع التي تضمن للبائسين التمتع بما يتمتع به غيرهم من الحيوانات

والآن اذ بينا اننا على طريق الكمال وان مستقبل الانسان يكون في عالم مجيد تم فيه السعادة وعرفنا ايضاً ما هي العقبات في طريق هذه السعادة وانها كلها من عمل الانسان وصنع يديه فيمكننا بذلك ان نزيلها كما اردنا . افلا يجدر بنا ان نستفيد من هذه المعرفة ونساعد الله والقوة الطبيعية اذا شئنا على تنفيذ ما لا بد من تنفيذه اخيراً . او لا نرى ان

حياة الانسان لا تعد شيئاً ما لم نفطن في سبيل ادراك هذه الغاية المجيدة . فمن هم الرجال الذين يخلد ذكرهم التاريخ ؟ ومن هم الذين نفاخر بهم ونحترمهم ونقتدي بهم ؟ اليسوا الذين بذلوا جهدهم ليوصلوا الهيئة الاجتماعية الى غايتها باسرع ما يمكن ؟ نعم هذه هي مشيئة الله ولا اجهل ممن يعرف مشيئته ولا يعمل بها

ان تاريخ المدنية ونشوءها يدل على انهُ لم يكن للانسان يدٌ قوية في الوصول الى هذه الحالة . بل كان تقدمهُ طبيعيًّا لم يعمل فكرتهُ فيهِ الاَّ في قليل من الاحوال . غير انهُ من مدة قصيرة انتبهت الشعوب الاوربية الى مدنيتنا فسرَّها ما رأتهُ من آفاتها فاشهرت عليها حربًا عوانًا . واشتغل اعظم مصلحيهم بازالة هذه الآفات فذهب بعضهم الى ان التعليم العام هو افضل دواء لهذا . ورأى آخرون غير ذلك لم ينكروا اهمية التعليم بل عدُّوهُ غير كافٍ وحدهُ وحثوا امتهم على الالتجاء الى ما يسمونهُ بالانتخاب التناسلي اي العمل على تكثير نسل الاقوياء وتقليل نسل الضعفاء

وهذا الانتخاب التناسلي هو نفس الطريقة التي يستعملها النباتيون ومربو الحيوانات . فكما انها افضل واسطة لترقية النبات والحيوان كذلك هي افضل وسيلة لترقية الانسان . وقد شعرت الامم الاوربية كلها بوجوب الاسراع نحو الكمال وبدأت تسعى الى ذلك . اما نحن فلا نزال خاملين لا نحرك ساكنًا تاركين امرنا للطبيعة لتمدننا كيفما شاءت وباي سرعة ارادت

ان ناموس تنازع البقاء وبقاء الاصلح ايها السادة لا يزال يعمل الآن كما كان يعمل من قبل . فان بقينا على ما نحن عليهِ الآن من الاهمال وعدم الانتباه تقهقرنا بلا ريب في سباق هذه الحياة بعد ان كنا السابقين فتندم حيث لا ينفع الندم . وها نحن الآن اذا داهمتنا دولة تريد صلح قسم من سلطتنا سألنا متكاسلين «باي حق تفعل ذلك» ظانين ان ناموس التنازع قد انتهى عملهُ وان العدل قد استتب في الارض . وما العدل سوى ان يملك الارض من هو اهلٌ لملكها . فالى اين نصل يا ترى اذا ظللنا تاركين الى الوراء لعل لنا مشاكلنا السياسية او لتفرج عنا الازمات المالية . انتم ادرى بذلك . فعليكم اذاً ايها السادة ان تنهضوا وتجاري الامم المتمدنة في سيرها او ان تتركوا هذا السباق لمن هو اهل لهُ ولمن يستحقهُ اكثر منا . فلنفاخر بما تعدهُ لاولادنا من اسباب السعادة والراحة والطمأنينة لا بما تركهُ اجدادنا من الآثار المجيدة التي تدل على اننا لسنا ابناء امناء . فهذه هي الحياة سباق لا يفوز فيهِ سوى الاصلح لهُ من الامم والافراد

موسى حنا ناصر